



خطبة صلاة الجمعة 5 / 2 / 2021 للشيخ الطبيب محمد خير الشَّعَال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(توقير الكبير)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة].

الوعي في اللغة يدل على فهم الشيء وحفظه وفقهه والإحاطة به. والأذن الواعية: هي أذنٌ سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ مَا سَمِعَتْ، أو هي أذنٌ تحفظُ ما سمعت، وتفكر فيه وتعمل بموجبه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتي فَوَعَاها؛ ثم بلغها، فَرَبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» [أخرجه الترمذي والطبراني واللفظ له وغيرهما].

هذه هي الخطبة السادسة في سلسلة عناونها (توعية)، أعرض لكم فيها صوراً وأحداثاً من علاقاتنا الأسرية ومعاملاتنا المالية؛ صحيحة مرة لنُعَمِّمَ خيرها وننشر فضلها، وخاطئة أو مخطئة مرة لنَحْذَرَ شرها ونترك فعلها؛ وفي كلتا الحالتين نفيد وعياً وفهماً.

يجب الإسلام أن يتحلى أبناؤه بالعلم، ويتزينوا بالفهم، ويتجملوا بالحكمة، ويتمسكوا بالتعقل والتدبر والوعي.

وعلى الطرف الآخر يكره الإسلام مخالطة الجاهلين، وصحبة السفهاء والمغفلين.

عنوان خطبة اليوم: توقير الكبير.

التوقير عند أهل اللغة هو التبجيل والتعظيم، ويربي الإسلام أبناءه على احترام الكبير وتوقيره، ليربط أواصر الجماعة ويمتد التواصل بين الأجيال المتعاقبة.

ونقرأ في هذا من آي القرآن الكريم وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير، ففي سورة البقرة قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133] أبوهم يعقوب، وجدهم إسحاق، وأبو جدهم إبراهيم، فلماذا قالوا: إسماعيل، وقدموه على جدهم إسحاق؟!

الجواب: لأدبهم الذي درجوا عليه من احترام الكبير قدموا إسماعيل على جدهم؛ لأنه أكبر منه واحتسبوه من جملة الآباء، والعم بمقام الأب.

وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، حدثوني ما هي؟**» فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة. قال عبد الله: فاستحييت. - في رواية: فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ الْقَوْمِ فَسَكْتُ - فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «**هي النخلة**».

فهاهنا استحيا ابن عمر من الكلام؛ لأن في المجلس من هو أسن منه، والحياء الواقع على وجه التوقير والإجلال مطلوب حسن.

وقد عقد النووي في كتابه الشهير "رياض الصالحين" باباً سماه "باب توقير العلماء والكبار وأهل الفضل، وتقديمهم على غيرهم ورفع مجالسهم وإظهار مَزَيَّتِهِمْ".

ذكر فيه حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**أَرَانِي فِي الْمَنَامِ أَتَسَوَّكُ بِسَوَاكِ، فَجَاءَنِي رَجُلَانِ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ، فَتَنَاوَلْتُ السَّوَاكَ الْأَصْغَرَ، فَقِيلَ لِي: كَبِّرْ، فَدَفَعْتُهُ إِلَى الْأَكْبَرِ مِنْهُمَا**» [رواه مسلم مسنداً، ورواه البخاري تعليقاً].

وفي الحديث: تقديم ذي السن في السواك، ويلتحق به الطعام والشراب والمشى والكلام، وهذا ما لم يترتب القوم، فإن ترتبوا فالسنة تقديم الأيمن.

وذكر حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْعَالِي فِيهِ وَالْجَانِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسَطِ**» [أبو داود].

فإكرام هؤلاء الثلاثة مما يرضاه الله تعالى ويثيب عليه. وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين المسن وحامل القرآن والسلطان، وقدم المسن، كأنه يقول لك وقر المسن كما توقّر السلطان، وعظّم المسن كما تعظم حامل القرآن الحاذق.

وحديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَبِضَ اللَّهُ لَهُ مِنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ»، قال الإمام الغزالي: (وهذه بشارة بدوام الحياة فليُتَنَبَّه لها فلا يُؤَفَّق لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر).

أيها الإخوة:

الأحاديث في توقير الكبير كثيرة، وإن من توقيره تقديمه في كل أمر كريم كتقديمه لإمامة الصلاة وتقديمه في الطعام والشراب والجلوس والدخول والكلام والنفقة.

ومن توقيره الرجوع إليه في المهمات والنزول على قوله في العضلات ولاسيما إذا جمع إلى السن الحكمة والتقوى والخبرة.

فمن الفضائل التي ورثناها عن آبائنا وجود الكُبراء في الأسر والأسواق والأحياء، يرجع أفراد العائلة إلى قول كبيرهم ويصدر أهل السوق عن رأي أكابرهم، وكم دفع هؤلاء الكبار عن الناس مكروهاً وكم ساقوا إليهم مرغوباً.

قِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبَسٍ: مَا أَكْثَرَ صَوَابِكُمْ؟ قَالَ: نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَأَنَّا أَلْفُ حَازِمٍ.

فشاب يريد طلاق زوجته؛ لإساءتها غير أنه لا يفعل حتى يرجع إلى كبير العائلة، فإذا رجع إليه نصحه نصائح وأرشده إرشادات وأمره بالإبقاء على زوجته، فأبقاها، فدامت حياتهما واستقامت أسرتهما وأنجبا الخيرين والخيرات.

وتاجر يريد سفرًا؛ لضيق الحال فيستشير كبير السوق فيدله على عمل يغنيه عن الناس ويبقيه بين أهله وولده.

وأب يضيق ذرعاً بولده المشاكس فيريد هجره وقلاه فيتوسط الجد وهو كبير العائلة ذو الرأي الحصيف والقول السديد لعودة الابن إلى حضن أبيه ورعايته، فيحمي الابن من التشرذم والانحراف، والوالدين من لوعة فقد الابن.

إن الرجوع إلى الكبير فضيلة في جوفها فضائل، كيف لا؟! والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: **«الْبَرَكَهُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ»** [ابن حبان والطبراني والحاكم].

وللمناسبة، أيها الشباب، من الخطأ ألا يكون لأحدكم كبير يسترشد برأيه ويستنير بعقله وخلقه، ويأتمر بأمره ونهيه، وكم جرّ ذلك على رجال من آلام.

ترى زوجاً غضوباً نَزَقاً يهجر زوجته هجراً يؤذيه ويؤذيها فإذا أردت الإصلاح وسألت عمن يرجع إليه ويهتدي بهديه؟ قيل لك: إن أحداً لا يستطيع أن يأمره وينهاه؛ لأنه لا يستجيب لأحد، فهو مُعْتَدٌّ برأيه معجب بقراراته.

ويراجعك بائع، له على زبون مبالغ مالية كبيرة، يريدك أن تتوسط في الأمر فتسأل عن الكبير الذي يرجع إليه هذا الزبون لتتدارس معه الأمر فتعلم أن لا كبير له، فهو بنظر نفسه الكبير الذي لا كبير فوقه والرأس الذي لا رأس له.

وتحرد زوجة وتمضي إلى بيت أختها، فيأتيك الزوج للوساطة فتتحري لتعلم أن لا كبير لها، ولا يستطيع أحد الأمر والنهي على هذه الزوجة، بل هي معجبة برأيها مغرورة بنفسها لا تأتمر ولا تنتهي إلا بما يوافق هواها.

قال الإمام الغزالي: (ومن أُعْجِبَ برأيه وعمله منعه ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف عن سؤال من هو أعلم منه، وربما يُعْجِبَ بالرأي الخطأ الذي خطر له فيُصِرُّ عليه فلا يسمع نصيح ناصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويُصِرُّ على خطئه،... قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: 8] وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104].

فيا أيها الإخوة: اتخذوا لأنفسكم كباراً ترجعون إلى مشورتهم وتصدرون عن آرائهم، تضيفون عقولاً إلى عقولكم وتأخذون من رأيهم بالمجان ما قامَ عَلَيْهِم بِالْعَلَاءِ. إذ من لا كبير له لا تدبير له، ومن لا كبير له فليبحث عن كبير. واعلموا أن من الحزم أن لا تثرموا أَمْراً وَلَا تَمْضُوا عَزْماً إِلَّا بِمَشُورَةِ كَبِيرٍ ذِي رَأْيٍ نَاصِحٍ وَعَقْلٍ رَاجِحٍ وَتَقْوَى ظَاهِرَةٍ. قَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: مَنْ حَقَّ الْعَاقِلُ أَنْ يُضَيَّفَ إِلَى رَأْيِهِ آرَاءَ الْعُقَلَاءِ، وَيَجْمَعَ إِلَى عَقْلِهِ عُقُولَ الْحُكَمَاءِ، فَالرَّأْيُ الْقُدُّ رُبَّمَا زَلَّ وَالْعَقْلُ الْقَرْدُ رُبَّمَا ضَلَّ.

ختاماً أيها الإخوة:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا»، وفي رواية: «حَقَّ كَبِيرِنَا» [أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ] فَكَمَالُ إِسْلَامِ الْمُسْلِمِ فِي رَحْمَةِ الصَّغِيرِ وَتَوْقِيرِ الْكَبِيرِ.

والحمد لله رب العالمين